قمّم الخصيان العرب أمام العنتيل الصهيوني

hourriya-tagheer.org

بقلم: علي أنوزلا...

مجدّداً، يجتمع القادة العرب والمسلمون في قاعة فخمة، هذه المرّة في الدوحة، ليعلنوا إدانتهم العدوان الإسرائيلي على غزّة، وليصرخوا في وجه حرب الإبادة التي أودت بحياة أكثر من 65 ألف فلسطيني، وجرح وإصابة نحو مائتي ألف آخرين، وتهدّد بتهجير مليوني شخص من ديارهم وأحيائهم ومدنهم. لكن خلف الخطابات المشحونة والكلمات العاطفية تمخّضت القمّة (يمثّل من حضروها أكثر من مليار مسلم في العالم) عن بيان طويل، لكنّه خالٍ من أي إجراءات عملية تعكس حجم الغضب الشعبي العربي والإسلامي من وجع الجرائم المستمرّة في غزّة الشهيدة، ومن صدمة الهجوم الغادر على عاصمة دولة عربية مسالمة مثل قطر.

بعد مفاجأة العدوان الصهيوني على قطر، وأمام مشاهد الدمار وشلال الدماء المستمرّ في غزّة، جاء البيان الختامي للقمّة محمّلاً بعبارات الإدانة الشديدة والرفض القاطع والتحذيرات أخيراً لكيان لم يأبه يوماً بالشرائع السماوية أو الإنسانية، ولا يخشى من أي عقاب، لأنه وضع نفسه فوق القوانين

الإلهية والوضعية، وبعيداً عن كلّ محاسبة أو محاكمة، وبالأحرى أن يخاف من مخرجات قمّةٍ لم تتجاوز سقف لغة الدعوات الفضفاضة إلى اتخاذ "التدابير القانونية الممكنة"، وكأنّ قصف عاصمة عربية مجرّد حادث سير يمكن أن يحدُث في كلّ زمان ومكان، وكأنّ حرب الإبادة المفتوحة في غزّة منذ زهاء سنتَين تحتاج محامين في قاعات المحافل والمحاكم أكثر ممّا تحتاج إلى صدٍّ للعدوان والوقوف في وجه الغاصب، وحماية المدنيين الأطفال والنساء والشيوخ والشباب من القتل البشع تحت القنابل، ومن القتل البطيء بالتجويع والتشريد والترهيب.

كانت أغلب الكلمات التي أُلقيت في القمّة قوية وبشحنة عاطفية زائدة، لكنّها بقيت مجرّد صرخة في صحراء الضعف العربي والعجز الإسلامي، بلا أدوات ضغط اقتصادية أو سياسية جدّية، كما طالب بذلك الرئيس التركي رجب طيب أردوغان. أمّا إيران، التي حضرت القمّة منكسرة من حربها مع إسرائيل، فقد اكتفت بالتحذير من أن "أي عاصمة عربية أو إسلامية قد تكون الهدف التالي"، وكأنّها تُعلن العجز أكثر ممّا تعد بخطّة ردع. كانت كلمة رئيس الوزراء الماليزي، أنور إبراهيم، بين الكلمات القليلة التي اخترقت هذا الجمود، عندما خاطب المجتمعين بلغة الصراحة المؤلمة: "وقف الصواريخ لا يتحقّق بالكلمات، بل باتخاذ مواقف رادعة"، محذّراً من أن الاستمرار في لغة المجاملة تواطؤ بالصمت. ومع ذلك، ظلّ صوته وحيداً تقريباً وسط قاعة غلبت عليها الحسابات السياسية ومراعاة المصالح قبل المبادئ. كلمات لم تكن مجرّد وصف للكارثة، بل كانت نداءً لاستنهاض ضمير القمّة نفسها: "إذا لم نبادر بإجراءات حقيقية، فكيف يمكننا أن نطالب المجتمع الدولي بتحمّل مسؤولياته؟". لقد لخّص أنور إبراهيم جوهر الإخفاق العربي والإسلامي: غياب الشجاعة لاتخاذ قرارات رادعة، والإصرار على الاكتفاء بلغة بيانات لا تحمي أو تطعم طفلاً غزيّاً جائعاً وخائفاً، ولا توقف المجازر اليومية المتسمرّة حتى تحوّلت طقساً يومياً نستفيق على بشاعته كلّ صباح، وننساه قبل حلول المساء. هكذا انتهت القمّة كما بدأت بنداءات ودعوات وكلمات في فراغ، بلا خطّة ولا جدول زمني ولا آليات تنفيذ.

المفارقة أن هذه القمّة انعقدت في الذكرى الخامسة لتوقيع اتفاقات أبراهام، التي شرعنت علاقات علنية بين إسرائيل وبعض الدول الخليجية والعربية، والنتيجة أن دول التطبيع العربية بدت مشلولة، متردّدة بين الحفاظ على مكاسبها الاقتصادية والدبلوماسية مع إسرائيل، وبين مجاراة الغضب الشعبي في بلدانها من جهة، والظهور بمظهر المتضامن مع الفلسطينيين من جهة أخرى. وكانت النتيجة أن لا قطع للعلاقات أو تعليقاً لها، لا عقوبات، ولا حتى إجراءات رمزية تحفظ ما تبقّى من ماء وجه وتصون بقايا كرامة.

إذا كان نجاح القمم والمؤتمرات يقاس بمدى قدرتها على تغيير الواقع أو على الأقلّ التأثير فيه، فإن

قمّة الدوحة لم تفعل سوى تكريس صورة عالم عربي - إسلامي عاجز، منقسم، يكتفي بالبيانات فيما تتواصل المجازر البشعة في غزّة، وتستمرّ حرب التطهير والتهجير والإبادة الجماعية على الهواء مباشرة، ويرتفع عدد الضحايا الذين يسقطون كلّ يوم بالعشرات، بينما يبقى السؤال: هل يُعقل أن تظلّ قممنا ومؤتمراتنا مجرّد غرف تسجيل ومنصّات لإلقاء الخطب، بينما تُدفن غزّة وسكّانها تحت الركام قبل أن تتحوّل إلى "ريفيرا" أميركية إسرائيلية؟

قمّة الدوحة، رغم قوة نبرة بيانها، لن تُذكَر بجرأة قراراتها، بل بضعف مخرجاتها، وستبقى مثالاً صارخاً على عجز المنظومة العربية والإسلامية عن تحويل الغضب الشعبي والرسمي سياساتٍ فعلية وقراراتٍ إجرائية، وعلى تجاهلها، حتى نداءات قادتها أنفسهم. فحين يقول رئيس وزراء ماليزيا بوضوح إن "الإدانات لا توقف الصواريخ"، ثمّ تنتهي القمّة إلى بيانٍ قويٍّ لكن بلا مخالب، فإن الفشل لا يعود يتمثّل في مواجهة إسرائيل وحدها، بل في مواجهة الذات بصراحة وشجاعة للخروج من شرنقة عجزها العملي ونفاقها الرسمي، وما لم تتحوّل الإدانات أفعالاً، ستظلّ هذه القمم التي عجزت عن اتخاذ قرارات عملية وإجرائية سريعة، مجرّد فضاءات لتفريغ الغضب الجماعي، فيما يُترك ملايين الفلسطينيين في غزّة والضفة الغربية أمام مصيرهم، يكتبون وحدهم تاريخهم بدماء أطفالهم في مواجهة وحش كاسر يقود حرب إبادة لا تُبقي ولا تذر.